هدى الرحمة المهداة

في استمالة وكسب الأعداء

إعداد:

د. محمد حسن علي ظاهر الطائي

التدريس في كلية الإمام الأعظم

العراق– نينوي

المقدمة

الحمد لله الرحمن الرحيم ذي القوة المتين الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له في رحمته وعدله وقوته كفوا أحد، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين وجعله هادياً ومربيا وقدوةً للمؤمنين محمدٍ ابن عبد الله الصادق الأمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد:

فإن من رحمة الله تعالى على خلقه أن بعث فيهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، قال عز من قائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، ثم كان من رحمته جل في علاه على خلقه أن بعث فيهم خير أنبيائه ورسله محمداً صلى الله عليه وسلم، أرسله رحمةً للعرب خاصة وللناس عامةً قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. فرحمةُ النبي صلى الله عليه وسلم رحمة شاملة وعامة عالمية، وليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب، بل رحمة لكل البشر، للعربي وغير العربي، للمسلم وغير المسلم، للمؤمن والمنافق، للرجل والمرأة، للكبير والصغير، للإنسان والحيوان والجماد والنبات. فقد جاءت هذه الرحمة المهداة لتخرج الناس من الظلمات إلى النور من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. فإضافة إلى رحمته بالمسلمين فقد بُعثَ صلى الله عليه وسلم رحمةً لغير المسلمين يوظف هذه الرحمة معهم بأن يأتلف قلوب المشركين وأهل الكتاب ليدخلوا في الإسلام، فكان يلاطفهم ويكلمهم بأرق الكلام وألينه على قلوبهم وكان يقبل بوجهه إليهم. وفي هذا البحث الموسوم "هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب الأعداء "سنقف عند رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالمخالفين له، لنبين من خلاله كيف كانت رحمته بالمشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وكيف أن وجوده بين ظهرانيهم كان

نعمةً دنيويةً لهم، إذ رفع الله عنهم الهلاك الجماعي بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]، وكم كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية الناس ودعوتهم إلى الإسلام وكسبهم واستمالتهم بالحكمة والموعظة الحسنة بدلاً من قتالهم ودفعهم إلى اعتناقه بالقوة، وهذا الذي أدى به إلى ملاطفتهم والتكلم معهم بأرق الكلام وألينه، والإحسان إلى أسراهم والعفو عنهم ودعوته أصحابه رضي الله عنهم ومن ثم الأمة الإسلامية إلى الالتزام بهذا الهدي الراقي في التعامل مع المخالفين في الدين من أجل استمالتهم وكسبهم إلى الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة لا بالتخويف والترويع والترهيب، لنكون بهذا الدين القويم والسمح خير أُمةٍ أُخرجت للناس تدلهم إلى طريق الحق ليخرجوا من ظلام الكفر والوثنية إلى نور الإسلام والتوحيد.

من أجل ذا قسم البحث إلى تمهيدٍ وأربعة مباحثٍ وخاتمةٍ، تطرق التمهيد إلى الكيفية التي من خلالها اكتسب الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرحمة، لنرى كيف أن حياة اليتم والعمل والكدح والخلوة كان لها الأثر الكبير في امتلاء قلبه الشريف بالعطف والرحمة بالناس أجمعين، لنمهد الطريق بعدها لبيان دعوته صلى الله عليه وسلم والتعاليم التي جاء بها والتي كانت بمجملها رحمةً للعالمين، ليندرج بذلك المبحث الأول تحت عنوان "رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وتعاليمه"، وفي المبحث الثاني والذي حمل عنوان "هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المشركين "تطرق البحث إلى رحمته صلى الله عليه وسلم بالمشركين من قريش وسائر قبائل شبه الجزيرة العربية وحرصه على إسلامهم والدعوة لهم بالهداية إلى دين الحق، وفي المبحث الثالث والذي حمل عنوان "هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المنافقين "تطرق الباحث من خلاله إلى رحمة نبي الرحمة بالمنافقين الذين أظهروا إسلامهم وأخفوا كفرهم وبغضهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين، والذي بسبب رحمته صلى

الله عليه وسلم لم يروا العذاب في الحياة الدنيا، فاختلطوا بالمؤمنين وحضروا صلاتهم في المسجد، ولم يقم الرسول الكريم بفضح أمرهم، بل اتجه إلى مسايستهم والرحمة بهم لعلهم ينالوا رضوان الله تعالى عليهم في الدنيا والفوز بالجنة والخروج من الدرك الأسفل من النار في الآخرة، في حين تناول المبحث الرابع والأخير حرص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على إسلام أهل الكتاب من اليهود والنصارى والخروج بهم من غضب الله عليهم وضلالتهم إلى مغفرةٍ منه جل في علاه ورحمةٍ بهم من الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم ليحمل المبحث عنوان "هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب أهل الكتاب "ثم ختم البحث بالإشارة إلى أهم وابرز النتائج التي خلص إليها.

وختاماً لا يسع الباحث إلا أن يتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساهم وسيساهم في إقامة وإنجاح هذا المؤتمر الذي سيكون له – بإذنه تعالى– الأثر البالغ في تصحيح المفاهيم الخاطئة التي ضللت رؤية العالم لهذا الدين القويم، سائلاً الباري عز وجل أن يوفقكم ويسدد خطاكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

تمهيد

ولد الرحمة المهداة سيد المرسلين ورسول رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول من عام الفيل[1]، وقيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل[2]، الموافق العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة 571م[3]. وقد فاض قلبه الشريف بالرحمة منذ كان طفلا، كيف لا وقد غسلته الملائكة بها يوم كان مسترضعا عند حليمة السعدية، وكان قبلها قد ولد يتيم الأب فلم يحظ بدفيء الأبوة وحنانها، وحين بلغ من العمر ست سنوات ذهب مع أمه آمنة بنت وهب لزيارة قبر أبيه في يثرب فماتت أمه في طريق العودة عند منطقة الأبواء بين مكة ويثرب[4] ففقد حنان الأم وعطفها، ثم فقد حنان جده عبد المطلب وعطفه عليه بعد وفاته يوم كان عمره صلى الله عليه وسلم ثمان سنوات[5]. ثم هذبه الفقر حين عاش معدماً يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وكانت مهنة رعي الغنم التي امتهنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقتبل شبابه قد أشربت قلبه الشريف بالرحمة لما لهذه المهنة من أثر في اكتساب صاحبها الرحمة بالحيوان والعطف عليه، وبطبيعة الحال فمن يكون رحيماً بالحيوان لابد وأن يكون رحيماً بالإنسان الذي أكرمه خالقه وفضله على جميع من خلق. فعاش صلى الله عليه وسلم حياة الفقراء واليتامى، يشعر بمشاعرهم ويتألم بآلامهم، فأكسبه ذلك حساً

(1) المباركفوري، صفي الرحمن: سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحيق المختوم- ط2، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق- بيروت:2001م)، ص53.

(2) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت: 213هـ): السيرة النبوية، ط2، طبعة جديدة منقحة ومرتبة، دار مكتبة المعارف، (بيروت: 2013م)، ص83.

(3) المرجع السابق: ص53.

(4) المصدر السابق: ص87.

(5) المصدر نفسه: ص87.

مرهفاً وشعوراً نبيلاً دفعه لمباشرة العمل بالتجارة، فخالط الناس وعاشر أصنافهم وخبر أخلاقهم. ثم حبب الله إليه الخلاء ليعتزل الناس، ويخلو بنفسه يراجعها ويحاسبها، ويعتني بقلبه تزكيةً وتطهيراً، ويتجه إلى ربه عز وجل تعبداً وتلقياً وتفكيراً[1].

وفي غار حراء أكرم الله نبيه بأن أنزل عليه كتاب الرحمة على قلبه الشريف ليكون رسول رحمةٍ من إله الرحمة، فضم القرآن بين دفتيه دعواتٍ كثيرةٍ إلى الرحمة بالمخلوقات من إنسٍ وجانٍ وحيوانٍ ونبات، إذ دعا إلى الرحمة بالناس مسلمهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال عز من قائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، وقال جل في علاه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159] فتشرب قلب الصادق الأمين بهذه الآيات وبمثلها معها من الأحاديث النبوية الشريفة التي اشتملت على الرحمة بالناس، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكن من في السماء) [2]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن لله مائة رحمة فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة) [3]، وقوله عليه السلام: (من لا يرَحم لا يرُحم)

(1) ياقوت، محمد مسعد: نبي الرحمة، تقديم: فريد عبد الخالق، ط1، الزهراء للإعلام العربي، (القاهرة: 2007م)، ص9.

(2) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت279هـ): سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: 1998م)، رقم الحديث: 1924، 388/3، وقال عنه حديث حسن صحيح.

(3) مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: د.ت)، رقم الحديث: 2753، 2108/4.

[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل) [2]، وقوله صلي الله عليه وسلم: (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة) [3]، وغيرها من الأحاديث في هذا المجال[4].

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام، رسالة الإنسان، رسالة الرحمة الإلهية، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، من عبادة الأحجار التي لا تضر ولا تنفع إلى عبادة الله الواحد الأحد. وسعى جاهداً ليؤمن الناس جميعاً برسالته، فقضى في مكة ثلاث عشرة سنةً يدعو أهلها إلى الإسلام، وكان رحيماً بهم عطوفاً عليهم حريصاً على إسلامهم، لكن زعماءها أبوا إلا المكابرة والجحود برسالته صلى الله عليه وسلم فضيقوا عليه وعلى أصحابه ونالوهم بأنواع العذاب، مما أدى به إلى أن يهاجر وأصحابه إلى المدينة المنورة، ليدخل الإسلام طوراً جديداً ، فبعد أن كان في مكة ديناً مضطهداً مشرداً بأتباعه، أمسى في المدينة ديناً لدولة لها كيانها وقوتها وشوكتها في شبه الجزيرة العربية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية أهلها وبقية قبائل شبه الجزيرة العربية، وكانت له عليه السلام وقفات كثيرة تبين رحمته بالناس مؤمنهم وكافرهم، وبدورنا سنسلط الضوء على رحمته صلى الله عليه وسلم بالمخالفين له في مسيرة دعوته إلى الله في مرحلتيها المكية والمدنية.

---

(1) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت 256هـ): صحيح البخاري، دار الشعب، (القاهرة: 1987م)، رقم الحديث: 5997، 9/8؛ المصدر نفسه: رقم الحديث: 2318، 1808.

(2) مسلم: المصدر نفسه، رقم الحديث: 2319، 1809/4.

(3) الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدوية بن نُعيم بن الحكم النيسابوري (ت 405هـ): المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1990م)، رقم الحديث: 100/ 91؛ وصححه الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (ت: 1420هـ): سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط1، مكتبة المعارف، (الرياض: 1995م)، رقم الحديث: 490، 882/1.

(4) للمزيد ينظر: ابن طولون في الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي (ت: 953هـ): الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، تحقيق وتخريج: محمد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم، (بيروت: 195م).

المبحث الأول

رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وتعاليمه

فاضت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم والتعاليم التي جاء بها بالرحمة بكل المخلوقات ومنهم بنو البشر مسلمهم وكافرهم، فالإسلام رحمة ذاته ورحمة في تعاليمه ورحمة في أحكامه. وقد خط الله تعالى لنبيه أسلوب دعوته الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال عز من قائل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. ولعل تدرج دعوته صلى الله عليه وسلم في قومه من خلال دعوة أهل بيته والمقربين إليه بدايةً، ثم إنذار عشيرته المقربين من خلال أمر الله له في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، ثم الجهر بالدعوة والصدع بها من خلال قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]، كانت رحمةً بحد ذاتها، ليتسنى للناس تقبل الدين الجديد، ففي بيئةٍ مثل مكة تغرس الشرك بأهلها في أعماق جذورهم، كان من الصعب بمكانة أن يتركوا دين آبائهم وأجدادهم الذي أدى بهم إلى زعامةٍ دينيةٍ وسياسيةٍ على القبائل من حولهم، وينصاعوا لدينٍ جديدٍ قد يؤدي بهم- حسب تصورهم- إلى فقدان تلك الزعامة، لذلك كان من الأهمية بمكان أن تتسم دعوته صلى الله عليه وسلم وتعاليمه بالتدرج في نشرها وفرضها وتطبيقها، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، فنزول القرآن شيئا بعد شيءٍ ،آيةً بعد آيةٍ، وحُكماً بعد حُكمٍ، يُعدُ بحد ذاته رحمةً للعباد، إذ أن الناس قبل الإسلام كانوا في إباحةٍ مطلقةٍ، فلو نزل عليهم القرآن دُفعةً واحدةً لثقُلت عليهم التكاليف، ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي، وفي ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (... إنما نزل أول ما نزل منه سورة من

المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً...). [1].

من هنا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته في أهل مكة، وكان صلى الله عليه وسلم رحيماً بهم حريصاً على هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وعلى الرغم مما لاقاه منهم من استهزاءٍ وتكذيبٍ واضطهادٍ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان رحيماً بهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام، وقد تجلى ذلك واضحاً بعد عودته صلى الله عليه وسلم حزيناً من ما لاقاه من ثقيف أثناء رحلته إلى الطائف في السنة العاشرة للبعثة، إذ جاءه جبريل عليه السلام برفقه ملك الجبال فناداه جبريل فقال له: (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم)، ثم ناداه ملك الجبال فسلم عليه ثم قال: (يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) [2].

بهذا المنهج السمح الرحيم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الله تعالى، وكان صلوات ربي وسلامه عليه يتحرى أيسر الطرق وأسهلها في فرض تعاليم الدين الإسلامي وأحكام الشريعة الإسلامية، وكل ذلك كان رحمةً منه بالناس، وفي ذلك تقول عائشة أم المؤمنين: (ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)

(1) البخاري: صحيح، رقم الحديث: 4993، 228/6.

(2) البخاري: صحيح، رقم الحديث: 3231، 140/4.

[1]. وكان صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بالتبشير والتيسير في إيصال رسالة الإسلام، والابتعاد عن التنفير والتعسير في إيصالها، فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا) [2]، وهذا نهج رباني أكد عليه المولى عز وجل في كتابه العزيز، بقوله جل في علاه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وكل ذلك رحمةً بالناس لتنزل عليهم تعاليم الإسلام كالغيث على قلوبهم فيألفوها وتطهرهم بها وتُذهب عنهم رجس الأوثان والأصنام.

من ذلك كله نلمس الحنيفية السمحة التي بُعث بها الحبيب المصطفى، فجاء رحمةً للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، بل ونلمس الرحمة في أحكامٍ قد سكت الله عنها لئلا تُفرض على المسلمين، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) [3]، وقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله عن الحج: أفي كل عام؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم: (لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم) [4]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس- لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة) [5] وفي رواية (عند كل وضوء)

(1) المصدر نفسه: رقم الحديث: 3560، 230/4.

(2) المصدر نفسه: رقم الحديث: 69، 27/1.

(3) الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: 807هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2001م)، 232/1؛ وقال عنه الألباني في تخريجه لأحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية، ط4، المكتب الإسلامي، (بيروت: 1993م)، ص44، حديث حسن بشاهده.

(4) مسلم: صحيح، رقم الحديث: 1337، 975/2.

(5) البخاري: صحيح، رقم الحديث: 887، 5/2.

[1]. ولما خبر صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه يكثر من الصيام والقيام الذي يؤدي إلى غبن حق الجسد والأهل وأن الرحمة تقتضي إعطاء الحق لهما قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله: (يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقلت: بلى يا رسول الله، قال فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا) [2] ولما شد عبد الله رضي الله عنه على الصيام والقيام وبيّن للنبي صلى الله عليه وسلم قدرته على الصيام والقيام، أجاز له رسول الله صيام نبي الله داود عليه السلام وهو صيام نصف الدهر، فلما بلغ عبد الله في السن قال رضي الله عنه: (يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم) [3]. ومن ذلك أيضاً رحمته صلى الله عليه وسلم في أن لا تفرض على أمته صلاة قيام الليل فتثقل عليهم، فلم يخرج إلى الصحابة بعد ثلاث ليالٍ قاموها مع نبيهم صلى الله عليه وسلم، فمع تأكيده صلى الله عليه وسلم على قيام الليل إلا أنه لم يشأ أن تفرض على أمته بل تركها سنةً لمن أراد قيامها وذلك رحمةً منه صلى الله عليه وسلم بالأمة[4]. من خلال ذلك كله نلحظ الرحمة الواسعة التي ميزت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم والتعاليم التي جاء بها من الرحمن الرحيم، هذه الرحمة التي كان لها الأثر الكبير في استمالة الناس وتقبلهم لدعوته صلى الله عليه وسلم والتي كانت السمة الأبرز لهذا الدين القويم.

(1) المصدر نفسه: رقم الحديث: 1933، 40/3.

(2) المصدر نفسه: رقم الحديث: 1975، 51/3.

(3) المصدر نفسه: رقم الحديث: 1975، 51/3.

(4) ينظر في ذلك: المصدر نفسه، رقم الحديث: 924، 13/2؛ مسلم : المصدر السابق، رقم الحديث: 761، 524/1.

المبحث الثاني

هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المشركين

على الرغم من كل ما لاقاه الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من سخريةٍ واستهزاءٍ بشخصه الكريم وتشويهٍ لتعاليمه وتكذيبها وتشبيهها بأساطير الأولين ومن اضطهادٍ لشخصه الكريم ولصحابته الكرام رضي الله عنهم من قبل المشركين في المرحلة المكية، ومن تكذيبٍ وقتال له في ساحات الوغى ومحاولات لاغتياله صلى الله عليه وسلم من قبلهم في المرحلة المدنية، إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً كل الحرص على هدايتهم وإسلامهم وذلك من منطلق الرحمة التي كانت من أهم وأبرز صفاته صلى الله عليه وسلم فنراه يدعو هؤلاء المشركين للإيمان به وبما جاء به من الله تعالى لئلا يكونوا حطباً لنار جهنم يوم القيامة، ولو كان ذلك آخر يوم في حياة أحدهم كما حصل مع عمه أبي طالب وهو على فراش الموت، (إذ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113].

وأنزل الله في أبي طالب قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56] (1).

سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرف عنه من رحمةٍ وحرصٍ على إسلام الناس أجمعين إلى العمل على استمالة وكسب هؤلاء المشركين حتى يكونوا مؤمنين، وقد تجلى ذلك في العديد من المواقف التي سجلتها لنا كتب الحديث والسيرة النبوية، ومن تلك المواقف عرض الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام على القبائل التي كانت تأتي مكة في موسم الحج، قال ابن اسحاق، (فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل ذلك من أمره يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، يعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة) (2)، فكان صلى الله عليه وسلم لا يسمع بقادمٍ يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده(3)، وإن دل هذا على شيءٍ فإنه يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إسلام الناس أجمعين ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقد توجت هذه الدعوة بالهجرة إلى المدينة وقبلها بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف في السنة العاشرة للبعثة، فعلى الرغم من ما لاقاه الرسول الكريم من أهل مكة والطائف إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان رحيماً بهم حريصاً على إسلامهم وقد تجلى ذلك في رده على جبريل وملك الجبال في طريق عودته إلى مكة عندما استأذنه ملك الجبال أن يطبق الأخشبين على أهل

(1) البخاري: صحيح، رقم الحديث: 4772، 141/6.

(2) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني (ت: 151هـ): سيرة ابن اسحاق (كتاب المغازي والسير)، تحقيق: سهيل زكار، ط1، دار الفكر، (بيروت: 1978م)، ص232.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ص215.

مكة فقال صلى الله عليه وسلم: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) [1]، فقال له ملك الجبال: (أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم) [2]، فأي رحمةٍ هذه من نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، فعلى الرغم من حالة الأسى المرير على ثقيف والحزن العميق الذي حمله صلى الله عليه وسلم في قلبه من ما لاقاه منهم وعلى الرغم من كل ما تعرض له صلى الله عليه وسلم من أذى واضطهاد من أهل مكة إلا أنه كان رحيماً بهم. ثم إن رحمته صلى الله عليه وسلم بأهل الطائف تجددت يوم انصرف عن حصارهم في السنة الثامنة للهجرة ونزل الجعرانة، فقال له رجل من أصحابه: يا رسول الله أدع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم) [3]. إن هذه الرحمة بأهل مكة والطائف هي التي دفعت المشركين في المدينتين بعدما أمسوا مشركين بأن يصبحوا مسلمين يدافعون عن بيضة الإسلام، وهذا ما حصل يوم ارتدت معظم القبائل في شبه جزيرة العرب – في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه– إلا مكة والمدينة والطائف.

وفي غزوة أُحد التي كانت من أصعب الغزوات على الرسول صلى الله عليه وسلم لما لاقاه وأصحابه في هذه الغزوة، إذ كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وجُرِحَ وجهه الشريف وكُسرت البيضة التي كانت على رأسه[4]، واستشهد من أصحابه سبعون رجلاً، ومثل المشركون بهم فقطعوا آذانهم وأنوفهم وشقوا بطونهم، ومن هؤلاء الشهداء الذين مُثّل بهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي

(1) البخاري: صحيح، رقم الحديث: 3231، 140/4.

(2) الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت 942هـ): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1993م)، 240/2؛ أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم (ت: 1403هـ): السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ط8، دار القلم، (دمشق: 2006م)، 404/1.

(3) ابن هشام: المصدر السابق، ص646.

(4) ينظر البخاري: المصدر السابق، رقم الحديث: 4075، 130/5؛ صحيح، رقم الحديث: 1790، 1416/3.

رضي الله عنه، فأمام كل ذلك تتجلى رحمته بهؤلاء المشركين إذ يرفض الانتقام الذي توعد به الصحابة قريشاً إن أمكنهم الله منهم في قابل الأيام بعد ما رأوا من حزن النبي صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضي الله عنه، إذ قال الصحابة رضي الله عنهم يومها: (والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنُمَثّلنَ بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. [النحل: 126]، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصبر ونهى عن المثلة) [(1)]. ويومها سأله أحد الصحابة أن يدعو على العدو وأن يستنزل اللعنة عليهم، فأجاب صلى الله عليه وسلم: (إني لم أُبعث لعاناً، ولكني بُعثتُ داعياً ورحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) [(2)]. فتجلت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف من خلال الدعاء للمشركين بالهداية والاعتذار عنهم بالجهالة، إذ أشفق عليهم ورحمهم ودعا لهم بسبب جهلهم بحاله ومقام كماله[(3)].

وأمام كل ما لاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من مشركي مكة في المرحلتين المكية والمدنية، كان بإمكانه أن ينتقم منهم بعد أن أظفره الله عليهم ومنَّ عليه بفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، لكنه صلى الله عليه وسلم عاملهم بخلاف ما كانوا عاملوه به وربما بخلاف ما كانوا سيعاملونه وأصحابه لو كان النصر حليفهم، فنراه صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بحسن معاملة أهل مكة

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص431؛ ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت: 235هـ): كتاب المغازي، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم العمري، ط2، دار اشبيليا للنشر والتوزيع؛ (الرياض: 2001م)، ص220.

(2) القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت 544هـ): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ط2، دار الفيحاء، (عمان: 1986م)، 221/1؛ ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (ت: 734هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط1، دار القلم، (بيروت: 1993م)، 38/2.

(3) الهروي، نور الدين أبي الحسن علي بن سلطان محمد (ت1014هـ): شرح الشفا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2000م)، 246/1.

وتجنب الدخول في مواجهة عسكرية أثناء الفتح، ثم نراه يأتلف قلب أبي سفيان إلى الإسلام بأن يعطي الأمان لكل من دخل داره ثم يأتلف قلوب أهل مكة برحمته عليهم وإعطاءهم الأمان لكل من أغلق عليه بابه ولكل من دخل المسجد الحرام، وما كانت وصاياه تلك إلا رحمة بأهل مكة لكي يضمن دخولهم الإسلام ولا يتعرضوا للقتل الذي تفضي إليه أية مقاومة للجيش الإسلامي، ولكي يكون يوم الفتح يوم مرحمة لقريش بدلا من أن يكون يوم ملحمة قد تفنيهم عن بكرة أبيهم، وهذا ما أكد عليه الرسول الكريم لأصحابه عندما قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: (اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشا) [1].

هكذا تجلت رحمته صلى الله عليه وسلم في يوم الفتح العظيم بالعديد من المواقف التي إن دلت على شيء إنما تدل على مدى الرحمة الواسعة– من لدن النبي صلى الله عليه وسلم– التي شملت مشركي قريش، وعلى مدى نجاح سياسة الرحمة التي انتهجها الرسول الكريم في تعامله مع المشركين، هذه السياسة التي آتت أكلها مع من بقي من زعماء قريش كعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأبي سفيان وغيرهم من الذين كان من الصعب أن يتقبلوا الإسلام لولا ما رأوه ولمسوه من حسن معاملة النبي صلى الله عليه وسلم ورأفته بهم ورحمته عليهم مع قدرته صلى الله عليه وسلم على قتلهم، فقد صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا على أبي سفيان وتقبل إسلامه التدريجي سيما في نطقه شهادة الحق شهادة الإسلام والإيمان الفعلي والشهادة به صلى الله عليه وسلم رسولا من الله تعالى، إذ روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل مر الظهران في غزوة الفتح أتاه أبو سفيان

(1) ابن سيد الناس: عيون الأثر، 221/2.

ودخل معسكر المسلمين بحماية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد، قال: (ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم (أني رسول الله؟) قال: بأبي أنت وامي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا. فقال له العباس: ويحك! أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فأسلم وشهد شهادة الحق) [1]. ثم عفا نبي الرحمة عن الثلاثة –أبو سفيان وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام – بعد ذلك لما دار بينهم من حوار اطلعه الله تعالى عليه، فروي (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما دخل الكعبة عام الفتح أمر بلالا أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو علم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك) [2].

كما ونلمس الرحمة مع العفو عند المقدرة أيضا عندما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة عامة بخطبته يوم الفتح فقال لهم: (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟) قالوا: خيراً،

(1) ابن هشام: السيرة النبوية ص599– 600؛ ابن سيد الناس: المصدر نفسه، 218/2؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث: 3341، 1025/7– 1030.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية، ص605؛ وينظر: المبار كفوري: الرحيق المختوم، ص418– 419.

أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: 92] اذهبوا فأنتم الطلقاء) [1].

كما شملت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم أسرى المشركين الذين دعا رسول الله إلى حسن معاملتهم تارة وإلى المن عليهم بإطلاق سراحهم تارة أخرى، كما حدث مع أسرى بدر الذين أقبل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وفرقهم بين أصحابه، فكان الصحابة رضي الله عنهم يحسنون إليهم فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوا الأسرى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بهم، فكانت ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا أعطاها الأسير، الذي كان يستحيي صنيعهم فيردها على أحدهم، فيعيدها الصحابي إلى الأسير دون أن يمسها [2]. ثم منَّ رسول الله على هؤلاء الأسرى فأخذ منهم الفداء، وكان الفداء أربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، والذي لم يكن عنده فداء، دفع إليه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم القراءة والكتابة مقابل إطلاق سراحه ومنَّ رسول الله على عدد من الأسرى فأطلقهم بغير فداء، منهم: أبو العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، والمطلب بن حنطب ، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجمحي[3]. هذه الرحمة من نبي الرحمة كان لها الأثر الكبير في استمالة وكسب البعض من الأسرى إلى الإسلام، كأبي العاص بن الربيع، الذي بعثت زينب في فداءه بمالٍ وقلادةٍ لها كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنهما أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها، فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم القلادة رقَّ

(1) ابن هشام: المصدر السابق، ص605؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، 226/2؛ وينظر: المبار كفوري: المرجع السابق، ص418.

(2) ابن هشام: المصدر نفسه، ص337.

(3) المصدر نفسه: ص345: المبار كفوري: المرجع السابق، ص233 – 234.

لها رقةً شديدةً، وقال للصحابة: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا) فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها، مقابل أن يخلي سبيل زينب ويرسلها إلى المدينة، ففعل، فأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، حتى إذا كان قبيل الفتح، أُسرَ أبو العاص من سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بينما كان خارجا بتجارة لرجال من قريش إلى الشام، فقدموا به المدينة فاستجار بزينب فأجارته، فمنَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانية، وذلك بعد أن استشار أفراد السرية، فوافقوا وردوا عليه ماله بأسره، فما كان من أبي العاص– بعد الذي رآه من حسن معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته به– إلا أن عاد إلى مكة وأعاد إليهم أموالهم، ثم أعلن إسلامه وهاجر إلى المدينة[1].

وقد آتت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بسبايا هوازن يوم حنين في السنة الثامنة للهجرة أكلها كذلك، إذ منَّ عليهم رسول الله وأطلق سراحهم، وبفعله هذا منَّ المسلمون على ما عندهم من السبايا فأطلقوا سراحهم أيضا، فأسلمت هوازن بأجمعها، ثم سألهم صلى الله عليه وسلم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف، فقال: (أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل) [2] فأخبروه بذلك، فخرج من الطائف وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه، وأنشد قائلاً:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدي ... ومتى تشأ يخبرك عما في غد[3]

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص341 – 342، 344.

(2) المصدر نفسه: ص648.

(3) المصدر نفسه: ص648.

المبحث الثالث

هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب المنافقين

كان المسلمون في المرحلة المكية قلة قليلة، مستضعفين ومضطهدين من قريش، لذلك لم يدخل الإسلام في هذه المرحلة إلا من كان مسلما صادقا بإسلامه، مؤمنا حق الإيمان بصدق النبي صلى الله عليه وسلم وصدق ما جاء به من الله تعالى، مستعدا لتحمل الأذى والتضحية في سبيل الإسلام. وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وتأسيس دولة الإسلام فيها أصبح المسلمون قوة لا يستهان بها، أعزها الله تعالى بنصره على قريش ويهود المدينة في العديد من الغزوات والسرايا، لذلك بدأ البعض من سكان المدينة يعتنق الإسلام لا عن رغبة به ولا عن إيمان برسوله صلى الله عليه وسلم، بل خوفا من قوة المسلمين ومجاراة للواقع الذي فرض عليهم بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وإيمان معظم قبيلتي الأوس والخزرج. لذلك اعتنق هؤلاء المنافقون الإسلام ظاهرا وأخفوا الكفر والفسوق والعصيان باطنا، وكانت لهم قوة لا يستهان بها سيما في زرع الفتنة بين المؤمنين وتوهين قوتهم في الغزوات والسرايا التي شاركوا فيها.

لقد شكل المنافقون عامل ضعف وانقسام في صفوف المسلمين، وكان خطرهم يبرز في الأوقات الحرجة وعند الأزمات، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من ذلك عاملهم على قدم المساواة من المسلمين، وحاول بأقصى طاقته أن يتألف قلوبهم، لأن هؤلاء الأفراد كانت تربطهم روابط عشائرية متينة ببقية المسلمين من الأوس والخزرج، وأن القسوة عليهم ومعاقبتهم بعد

أن أظهروا الإسلام قد تؤدي إلى حدوث الانقسام والتفكك في صفوف المسلمين[1]. لذلك سعى رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم إلى استمالة هؤلاء المنافقين وكسبهم إلى صف المؤمنين، وبسبب رحمته صلى الله عليه وسلم لم يروا العذاب في الحياة الدنيا، فاختلطوا بالمؤمنين وحضروا صلاتهم في المسجد، ولم يقم الرسول الكريم بفضح أمرهم للصحابة – إلا ما كان من أمر حذيفة بن اليمان الذي أطلعه الرسول الكريم على أسمائهم حتى سمي بصاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] بل اتجه إلى مسايستهم والرحمة بهم لعلهم ينالوا رضي الله عنهم في الدنيا والفوز بالجنة والخروج من الدرك الأسفل من النار في الآخرة.

وقد كانت للرسول صلى الله عليه وسلم العديد من المواقف التي بينت رحمته صلى الله عليه وسلم بهؤلاء المنافقين من خلال حرصه على إيمانهم وكسبهم إلى صف المؤمنين، فعفا عنهم في العديد من المناسبات سيما عن زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول الذي كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، لكن هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ووصوله المدينة المنورة وتسلمه الزعامة الدينية والسياسية فيها، وانصراف قوم ابن سلول عنه إلى الإسلام حال دون ذلك، مما دفع بابن سلول أن يتخذ هذا الموقف المعادي منه صلى الله عليه وسلم، إذ رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه مُلكاً، وأن قومه قد أبوا إلا الإسلام، لذلك دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضعن[3]. وقد كانت لعبد الله بن سلول العديد من المواقف التي حاول من خلالها الطعن بالإسلام وبالمسلمين والتخذيل بهم وتوهين صفوفهم والتحالف مع أعداءهم من قريش ويهود

(1) الملاح، هاشم يحيى: الوسيط في السيرة النبوية، ط1، دار النفائس، (عمّان: 2003م)، ص351- 352.

(2) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت: 463هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، (بيروت: 1992م)، 335/1.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ص302؛ وينظر: الملاح: الوسيط في السيرة النبوية، ص351.

المدينة، من ذلك دوره في غزوة بني قينقاع عندما ألح على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحسن فيهم وتجرئه عليه صلى الله عليه وسلم وإدخال يده في جيب درع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دوره في غزوة أحد ومحاولته تخذيل جيش المسلمين بانسحابه بثلاثمائة مقاتل ممن هم على شاكلته بحجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ بمشورته في القتال داخل المدينة، وتحريضه لبني النضير بأن لا ينزلوا عند حكم النبي صلى الله عليه وسلم فيهم بأن يخرجوا من المدينة ودعوته لهم بأن يثبتوا ويتمنعوا ولا يخرجوا من ديارهم وقوله لهم إن معي ألفا مقاتل يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم فأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]، ثم تشكيكه يوم الأحزاب بقوة المسلمين- لما رآه وأصحابه المنافقون من كثرة الأحزاب وتكالبهم على المسلمين وحصارهم للمدينة- وقوله فيما أنزله الله فيه ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]، ثم إثارته الشبهات حول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والتشهير به بعد زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضى الله عنهما سيما وأنها كانت زوجته الخامسة وزوجه ابنه زيد بن حارثة بالتبني، ودوره في غزوة بني المصطلق عندما قال قولته المشهورة والتي فضحه الله بها بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]، وتشهيره بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما في حادثة الإفك، وغيرها من المواقف التي قام بها هذا المنافق. لكن رسول الرحمة ومن منطلق توحيد الأمة والعطف بالناس والرأفة بهم ورغبة منه صلى الله عليه وسلم في احتواء الأزمات، فقد عفا عن

ابن سلول في جل هذه المواقف بل وصلى عليه عند موته، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: صلى الله عليه وسلم لما مات عبد الله بن أبي بن سلول، دعي له سول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبتُ إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أُبيّ؟ وقد قال يوم كذا وكذا ،كذا وكذا، أُعدد قوله: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (أخر عني يا عمر)، فلما أكترتُ عليه قال: (إني خُيّرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 8] لو أعلم أني زدتُ على السبعين يُغفر له، لزدتُ عليها)، قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]، قال عمر: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله أعلم[1]. ومن هنا نجد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداية هؤلاء المنافقين وإخراجهم من النفاق إلى الإيمان حتى لو كان ذلك في آخر لحظة من حياتهم بل وبعد مماتهم. لكن هذا التسامح من الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين والذي أملاه عليه حرصه على وحدة الصف بين أهل المدينة لم يمنع من فضح دسائسهم وأعمالهم التي تولى القرآن الكريم بيان أبعادها ومخاطرها على الجماعة المؤمنة في العديد من الآيات القرآنية[2].

كان حريا بهؤلاء المنافقين أن يؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان بعدما أراهم الله من آياته على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ما يثبت به فؤاد المسلم الصادق بإسلامه المؤمن حق الإيمان بصدق

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص681؛ البخاري: صحيح، رقم الحديث: 1366، 121/2.

(2) الملاح: الوسيط في السيرة النبوية، ص377.

الصادق المصدوق وصدق ما جاء به من الله تعالى، لكنهم بقوا في غيّهم ونفاقهم حتى فضحهم الله تعالى في غزوة تبوك التي كان التخلف عنها من صفات النفاق والمنافقين، إذا كان خروج الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزو لمواجهة عدد ذو كثرة وبأس شديد، وكان وقت الخروج في فصل القيظ الشديد، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاد وقلة من الظهر مما يركبون عليه، وكانت الثمار قد طابت، فكان الناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة[1]. وقد تجلى النفاق وانفضح أمر المنافقين في تخلفهم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، فهذا الجد بن قيس يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟) فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (قال أذنت لك). فعفا عنه صلى الله عليه وسلم رحمة به وأذن له وإن كان قد عدّه الله تبارك وتعالى مع المنافقين، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49]، أي إن كان إنما خشى الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر، بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرغبة بنفسه عن نفسه[2].

وبرحمته صلى الله عليه وسلم وعفوه عن الناس، فقد هدى الله تعالى مخشن بن حمير وقد كان في رهط من المنافقين فيهم وديعة بن ثابت يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق

(1) المبار كفوري: الرحيق المختوم، ص445.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية، ص659؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، 267/2.

إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا! والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر (أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا –أي هلكوا– فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقال: بلى، قلتم كذا وكذا)، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم: فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 65-66]، وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي إسمي واسم أبي، وكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر[1].

هكذا كان هدي الرحمة المهداة في استمالة المنافقين وكسبهم إلى الإسلام وإنقاذهم من الخزي في الحياة الدنيا وإخراجهم من الدرك الأسفل في الحياة الأخرة، فأسلم أسلم منهم واهتدى وظل من ظل منهم وغوى.

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص664؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، 1381/3؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، 271/2.

المبحث الرابع

هدي الرحمة المهداة في استمالة وكسب أهل الكتاب

بعث الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وخاتما للأنبياء والمرسلين، وجعل الدين الإسلامي هو الدين القيم والسائد على جميع الديانات السماوية، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وبذلك أصبح حريا بأهل الكتاب أن يؤمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما آمن المسلمون بالله وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285] بشرط أن يكون إسلامهم طواعية من غير إكراه أو إجبار، وذلك بحكم الحرية الدينية التي أقرها الإسلام السمح الحنيف بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

وبحكم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)﴾ [العنكبوت: 46]، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنى وجادلهم بالتي هي أحسن ودعا أصحابه إلى اتباع النهج ذاته معهم لم يمتلكونه من علم ومعرفة بالديانات السماوية، وقد آتت هذه الدعوة أكلها مع أصحمة النجاشي ملك الحبشة الذي أسلم على يد مهاجرة المسلمين إليها. ثم كانت سياسته صلى الله عليه وسلم مع الذين أبوا إلا البقاء على دينهم من اليهود والنصارى (قائمة على الاعتراف لهم بحق الاحتفاظ بعقيدتهم لأنهم أهل كتاب، وكتاب يشترط عليهم للتعبير عن ولاءهم للدولة الإسلامية أن يدفع الرجال القادرون منهم مبلغا سنويا من المال يدعي الجزية، مقابل حماية الدولة لهم وبخاصة وأنه لم يكن مفروضا عليهم واجب

الجهاد وأداء الزكاة) [1]. ثم ما خلت وصاياه صلى الله عليه وسلم بأهل الكتاب من رحمة واسعة شملت صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما) [2].

وإذا كانت المرحلة المكية من الدعوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم قد خلت من تماس مباشر له صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب من يهود أو نصارى ودعوة رحمة منه صلى الله عليه وسلم لهم للدخول في الإسلام والخروج بهم من غضب الله عليهم وضلالتهم إلى مغفرة منه جل في علاه، فإن المرحلة المدنية شهدت تماسا مباشرا للرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب من يهود المدينة وخيبر وفدك وتيماء أو نصارى الوفود التي أتت إليه صلى الله عليه وسلم كنصارى نجران أو من بعض رجالات النصارى العرب الذين اعتنقوا الإسلام على يديه صلى الله عليه وسلم كعدي بن حاتم الطائي. ولعلنا في التماسنا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم ومنهجه في استمالة وكسب أهل الكتاب سنقف عند الخلق السامي والآلية السمحة التي يمكننا من خلالها استمالة المخالفين من اتباع الديانات السماوية واكتسابهم إلى الصف الإسلامي.

مع بداية وصول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة النبوية عمد صلى الله عليه وسلم إلى تأسيس دولة الإسلام، دولة يتعايش فيها الجميع بحرية وكرامة وسلام. ومن أجل تحقيق ذلك أصدر صلى الله عليه وسلم ميثاقا أزاح به كل ما كان من حزازات الجاهلية ونزعات القبلية، ونظم العلاقات العامة بين أهل المدينة وبينه صلى الله عليه وسلم باعتباره صاحب السلطة العليا فيها. وعرف هذا الميثاق في كتب التاريخ والسيرة النبوية بميثاق التحالف الإسلامي أو صحيفة المدينة. وقد ضمت هذه الصحيفة بنودا عديدة نظمت علاقة يهود المدينة – بنو قينقاع

(1) الملاح: الوسيط في السيرة النبوية، ص486.

(2) البخاري: صحيح، رقم الحديث: 6914، 16/9.

وبنو النضير وبنو قريظة- بدولة الإسلام فيها، وكانت جل هذه البنود رحمة من الرحمة المسداة بيهود المدينة من أجل أن يعيشوا بأمن وسلام في ظل دولة الإسلام، إذ كفلت لهم حرية ممارسة عقيدتهم فقررت أن (لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم) [1]. ثم قررت الصحيفة مبدأ المسؤولية الفردية القائمة على القانون الإلهي المنزل بحكم قوله تعالى:﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: 38]، فقررت أن من ارتكب جرما أو عدوانا من يهود المدينة، فإن المسؤولية تقع على عاتقه وحده، فنصت على أن (من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[2] إلا نفسه، وأهل بيته) [3]. وفي مقابل الحقوق الآنفة الذكر فقد أوجبت الصحيفة على اليهود بعض الواجبات كمعاونتهم للمسلمين ضد من يحاربهم ووجوب النصيحة بينهم وبين المسلمين، فجاء فيها (وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم... وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) [4].

لقد كان حريا بيهود المدينة أن يعيشوا بأمن وأمان في ظل رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بهم وعزمه على استمالتهم وإسلامهم، والذي تجلى في العديد من المواقف كإسلام عبد الله بن سلام أحد أبرز أحبارهم وعلمائهم[5]، ثم في جمع الرسول الكريم ليهود بني قينقاع في سوقهم بعد غزوة بدر

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص255.

(2) يوتغ: الوتغ، بالتحريك: الهلاك. وتغ يوتغ وتغا: فسد وهلك وأثم. ينظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت:711 هـ): لسان العرب، ط3، دار صادر، (بيروت: 1993م)، 458/8.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ص255.

(4) المصدر نفسه: ص255.

(5) ينظر في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه: ابن هشام: المصدر نفسه، ص262- 263؛ البخاري: صحيح، رقم الحديث: 3911، 80/5؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، 238/1.

وحثهم على الدخول في الإسلام قبل أن يصيبهم ما أصاب قريشا في هذه الغزوة[1]، لكنهم وبحكم ما عرفوا به وما ملأوا به تاريخهم من نقض للعهود والمواثيق وتكذيب وقتل الأنبياء الله ورسله، فقد تنصلوا يوما بعد يوم من بنود الصحيفة فأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل ويحيكون الدسائس والمؤامرات مما اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إجلائهم قبيلة تلو الأخرى. ومع غزو النبي صلى الله عليه وسلم ليهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة تتجلى رحمته صلى الله عليه وسلم بهم ورأفته بحالهم، فمع كل ما لاقاه صلى الله عليه وسلم والمسلمون من غدر وخيانة وتنكيل على يد هذه القبائل الثلاثة، إلا أن نبي الرحمة عفا عن بني قينقاع وبني النضير واكتفى بإجلائهم من المدينة دون معاقبتهم وقتلهم جراء ما اقترفوه[2]، في حين كان غدر بني قريظة أقبح وأشنع، إذا نقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في أصعب موقف يمر على المسلمين– وذلك في غزة الأحزاب– والذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10-11]، ومع هذا لم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلهم بل جعل أمرهم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه أحد زعماء الأوس لأنهم (بنو قريظة) كانوا حلفاء الأوس، فحكم فيهم بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد حكم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سماوات) [3]، ثم تتجلى رحمته صلى الله عليه وسلم بهم حتى وهم

(1) ينظر: ابن هشام: المصدر نفسه، ص283.

(2) ينظر في غزوتي بني قينقاع وبني النضير: الواقدي، محمد بن عمر(ت: 207هـ): كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت: 1964م)، 176/1، 363/1؛ ابن هشام: المصدر نفسه، ص402، 482؛ ابن سيد الناس، المصدر السابق، 343/1، 70/2

(3) يُنظر في غزوة بني قريظة: الواقدي: المغازي، 496/2؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ص505، ابن أبي شيبة: المغازي، ص263؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، 100/2؛ والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث: 2745، 556/6.

يعرضون على القتل إذ يأمر الصحابة بأن يرحموهم ويحسنوا إليهم وأن لا يجلسوهم تحت الشمس، فيقول: (أحسنوا إسارهم، وقيلوهم واسقوهم، لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح) [1].

وإذا ما قارنا اكتفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بإجلاء بني النضير وموافقته على حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بقتل رجالهم وسبي ذراريهم وتقسيم أموالهم، نلمس رحمته صلى الله عليه وسلم ببني النضير وعدم انتقامه لنفسه إذ أن جرمهم كان شنيعا كذلك إذا هموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن نبي الرحمة والحاكم العادل (عليه الصلاة والسلام) يقدم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية فيكتفي بإجلاء بني النضير في حين يوافق على حكم سعد بن معاذ في بني قريظة والقاضي- كما أشرنا- بقتل الرجال وسبي الذرية وتقسيم الأموال، وذلك لأن جرمهم كان أشنع إذ غدروا بالمسلمين عامة وتآمروا على قتلهم واستئصال شوكتهم. ثم إن هذا الخلق السامي والرحمة النبوية منه صلى الله عليه وسلم استقطبت البعض من رجالات اليهود إلى الإسلام، فأسلم من بني النضير يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب[2]، وأسلم من بني قريظة ريحانة بنت عمرو القرظية التي اصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه وأسلم عطية القرظي ورفاعة بن سموأل القرظي وعبدالرحمن بن الزبير بن باطا القرظي[3]. كما أسلمت بعد غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة صفية بنت حيي بن أخطب فاصطفاها رسول الله لنفسه وتزوجها، ورأت من رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم ما مال بها إلى الإسلام، وذلك عندما عاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا الحبشي رضي الله عنه لقيامه بعرض صفية ويهودية أخرى كانت معها في السبايا على قتلى

(1) الواقدي: مغازي الواقدي، 514/2، والصالحي: سبل الهدى والرشاد، 13/5.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية، ص483.

(3) المصدر نفسه: ص510، 511.

قومهما فقال صلى الله عليه وسلم: (أنزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما) [1].

ولما قدم وفد نصارى نجران إلى المدينة في السنة التاسعة للهجرة والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فاكرمهم وأحسن ضيافتهم، وباهلهم وحاججهم بعقيدتهم أسلم منهم رجلان من سادتهما بعد ايقانهما بأنه صلى الله عليه وسلم نبي آخر الزمان، وهما أميرهم الملقب بالعاقب واسمه عبد المسيح، وصاحب رحلهم والملقب بالسيد واسمه الأيهم، وأسلم منهم كذلك كوز بن علقمة[2].

وأسلم عدي بن حاتم الطائي وكان نصرانيا لما رأى من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأخته سفانة بنت حاتم التي كانت من ضمن سبايا طي، إذ هرب عدي إلى الشام وحمل معه زوجته وأبناءه لما علم بجيش المسلمين قد اقترب من دياره، وترك خلفه أخته سفانه التي وقعت في أيدي المسلمين، فأحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها لمكانة أبيها في العرب، ثم منَّ عليها وأطلق سراحها، فذهبت إلى أخيها في بلاد الشام، وأخبرته بحسن تعامل النبي صلى الله عليه وسلم معها ورحمته بها، فما كان من عدي إلا أن يأتي المدينة ويدخل على النبي صلى الله عليه وسلم ويعلن إسلامه سيما بعدما رأى من رحمته صلى الله عليه وسلم مع امرأة عجوز، وبعدما رءاه من حسن معاملة منه صلى الله عليه وسلم وإكرامه له بأن أعطاه وسادته ليجلس عليها وجلس هو على الأرض[3].

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص563، والصالحي: سبل الهدى والرشاد، 13/5، والحديث ضعيف لأنه من رواية اسحاق بن يسار والد محمد بن اسحاق صاحب السيرة معلقاً؛ ينظر: ابن اسحاق: سيرة ابن اسحاق: 264/1.

(2) المصدر نفسه: ص295، 296؛ وينظر: المبار كفوري: الرحيق المختوم، ص465.

(3) المصدر نفسه: ص695 – 697.

الخاتمة

- إن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم رحمة شاملة وعامة وعالمية، وليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب، بل رحمة لكل البشر، للعربي وغير العربي، للمسلم وغير المسلم، للمؤمن والمنافق، للرجل والمرأة، للكبير والصغير، للإنسان والحيوان والجماد والنبات. فإضافة إلى رحمته بالمسلمين فقد بعث صلى الله عليه وسلم رحمة لغير المسلمين يوظف هذه الرحمة معهم بأن يأتلف قلوب المشركين وأهل الكتاب ليدخلوا في الإسلام، فكان صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية الناس ودعوتهم إلى الإسلام وكسبهم واستمالتهم بالحكمة والموعظة الحسنة بدلا من قتالهم ودفعهم إلى اعتناقه بالقوة، وهذا الذي أدى به إلى ملاطفتهم والتكلم معهم بأرق الكلام وألينه، والإحسان إلى أسراهم والعفو عنهم، ودعوته أصحابه رضي الله عنهم ومن ثم الأمة الإسلامية إلى الالتزام بهذا الهدي الراقي في التعامل مع المخالفين في الدين من أجل استمالتهم وكسبهم إلى الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة لا بالتخويف والترويع والترهيب، لنكون بهذا الدين القويم والسمح خير أمة أخرجت للناس تدلهم إلى طريق الحق ليخرجوا من ظلام الكفر والثنية إلى نور الإسلام والتوحيد.
- إن حياة اليتم والعمل والكدح والخلوة التي عاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لها الأثر الكبير في امتلاء قلبه الشريف بالعطف والرحمة بالناس أجمعين. إذ هذبه اليتم والفقر فعاش معدما يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وكانت مهنة رعي الغنم التي امتهنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقتبل شبابه قد أشربت قلبه الشريف بالرحمة لما لهذه المهنة من أثر في اكتساب صاحبها الرحمة بالحيوان والعطف عليه. ثم اشتغل صلى الله عليه وسلم بالتجارة، فخالط الناس وعاشر أصنافهم وخبر أخلاقهم وأكتسب الرحمة في التعامل معهم. ثم أكرمه الله تعالى بأن أنزل عليه قرآن

الرحمة والذي ضم بين دفتيه دعوات كثيرة إلى الرحمة بالمخلوقات من إنس وجان وحيوان ونبات، إذ دعا إلى الرحمة بالناس مسلمهم وكافرهم، ففاضت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم والتعاليم التي جاء بها الرحمة بكل المخلوقات ومنهم بنو البشر مسلمهم وكافرهم، فالإسلام رحمة في ذاته ورحمة في تعاليمه ورحمة في أحكامه، ولعل تدرج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته كانت رحمة بحد ذاتها، ليتسنى للناس تقبل الدين الجديد.

- بما عرف عنه من خلق عظيم لم يكن نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ليدعو على المخالفين له، بل كان صلى الله عليه وسلم يدع الله لهم بالهداية والتوفيق إلى طريق الحق طريق الإسلام، وهذا ما حصل مع مشركي قريش بعد غزوة أحد إذ قال للصحابي الذي طلب منه أن يدع على قريش ويستنزل اللعنة عليهم: (إني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)، فكان من رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يدع للمشركين بالهداية والاعتذار عنهم بالجهالة، فكان صلى الله عليه وسلم يشفق عليهم ويرحمهم ويدع لهم بسبب جهلهم بحاله ومقام كماله.

- كما لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم لينتقم لنفسه أبدا، بل على العكس من ذلك تماما كان أقرب ما يكون إلى العفو والصفح مع المخالفين له لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ويرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء. وقد تجلى ذلك في العديد من الغزوات التي أمكن الله لنبيه بها على أعدائه، فلم ينتقم من بني قينقاع وبني النضير بعد أن أظهره الله عليهم بل اكتفى بإجلائهم من المدينة، ولم ينتقم من قريش يوم أن منّ الله عليه بالفتح العظيم بل قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء ومن رحمته أيضا فإنه

لم يكن لينتقم من الأسرى الذين وقعوا في قبضته من بعد أن أظفره الله بهم، بل كان يدع إلى الإحسان إليهم وفك أسرهم إذا اقتضت المصلحة لذلك.

- على الرغم من ما شكله المنافقون في المدينة من عامل ضعف وانقسام في صفوف المسلمين، ومن اتصالات كانت لهم مع اليهود والمشركين من أجل القضاء على المسلمين، وعلى الرغم من توعد الله لهم بالعقاب الشديد يوم القيامة، إلا أن رحمة نبي الرحمة شملتهم في الدنيا، فكان صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمانهم وكسبهم إلى الإسلام وإنقاذهم من الخزي في الحياة الدنيا وإخراجهم من الدرك الأسفل في الحياة الأخرة، فبسبب رحمته هذه لم يروا العذاب في الحياة الدنيا، فاختلطوا بالمؤمنين وحضروا صلاتهم في المسجد، ولم يقم الرسول الكريم بفضح أمرهم للصحابة، وبسبب رحمته هذه أسلم من أسلم منهم واهتدى وعاد إلى الصف الإسلامي بعد أن أنقذته رحمة النبي صلى الله عليه وسلم.

- كما لم يكن أهل الكتاب بمنأى عن رحمة رسول الرحمة، إذ كان صلى الله عليه وسلم حريصا على إسلامهم بصفة الإيجاب التي فرضها الله على اتباع الديانات السماوية باتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، وبقضاء الله تعالى بسيادة الإسلام على كل الديانات الأخرى لكونه الدين الباقي يوم القيامة. لذلك حرص نبي الرحمة على استمالة أهل الكتاب وإسلامهم وإيمانهم به صلى الله عليه وسلم بصفته خاتم الأنبياء والمرسلين، ودعا الصحابة والأمة إلى انتهاج نهجه في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام.

- إن نهج الرحمة الذي انتهجه رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم مع المخالفين له من أجل استمالتهم وهدايتهم ثم اكتسابهم إلى الصف الإسلامي قد آتت أكلها مع قريش وثقيف وهوازن وغيرها من

القبائل في شبه الجزيرة العربية، وآتت أكلها كذلك مع العديد من المنافقين الذين عادوا إلى رشدهم وأبصروا نور الإيمان، ثم آتت أكلها أيضا مع العديد من رجالات أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين، لذلك لا سبيل إلى العنف والإرهاب والتخويف والترويع في التعامل مع المخالفين، بل يكون السبيل إليهم بدعوتهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، رحمة بهم وإنقاذا لهم من الخزي في الحياة الدنيا ومن العذاب في الآخرة.

وفي الختام لا يسع الباحث إلا أن يلتمس من اللجنتان العلمية والتحضيرية للمؤتمر وإلى الباحثين والمشاركين فيه ،بأن يتكرموا بقبول بضعا من التوصيات التي تنمي فينا وفي أبناء الأمة روح الرحمة في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة المخالفين لنا بالتي هي أحسن والتي تتلخص في التالي:

1. العمل الجاد والبناء في تنشئة أجيال تدعو إلى الله بمنهج نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم وبما سار عليه الصحابة الكرام والتابعين الأخيار في دعوتهم ونشرهم الإسلام في أرجاء المعمورة. ذلك النهج الذي اتخذ من الرحمة بالناس ديدنا له في نشره للإسلام، وفي تعامله مع المخالفين من أجل استمالتهم إلى الإسلام أولا وترغيبهم فيه، ثم اكتسابهم إلى الصف الإسلامي وإنقاذهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة آخرا.

2. من أجل تحقيق ذلك لابد وأن تكون هناك جهود جبارة تضطلع بها الهيئات التربوية والتعليمية والتي تبدأ بالبيت المسلم ومرورا بالمدارس والمعاهد والجامعات، لتأخذ على عاتقها إنشاء هذه الأجيال التي ترى في الرحمة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة الأسلوب الأمثل في نشر الإسلام وتعاليمه، وأن تنكر الأفكار الهدامة التي تنتقص من رحمة الإسلام ورسوله. وتضطلع الهيئات الإعلامية من

إذاعات وقنوات فضائية ومواقع إسلامية الكترونية بدورها كذلك في إبراز أساس الرحمة الذي بني عليه الإسلام ودعا إليه في التعامل مع المخالفين.

3. كما يقع العبئ الأكبر في نقل صورة الإسلام البراقة وصورة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ورحمته بالعالمين على عاتق الدعاة المسلمين الذين ينتشرون في أرجاء المعمورة داعين إلى الله بنهج نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي أشرنا إليه آنفا، مبينين للعالم رحمة الإسلام ورحمة المسلمين وتراحمهم فيما بينهم، ومنكرين لكل ما ألصق بالإسلام بهتانا وزورا، وما أشاعه أعداء الإسلام من أفكار هدامة ألصقوها به واستقطبوا بها أناسا غرر بهم ليعملوا على تشويهه وتشويه تعاليمه السمحة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية

ابن اسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني (ت: 151هـ).

1. سيرة ابن إسحاق (كتاب المغازي والسير)، تحقيق: سهيل زكار، ط1، دار الفكر، (بيروت: 1978م).

2. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت256هـ):

3. صحيح البخاري، ط1، دار الشعب، (القاهرة: 1987م). الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت 279هـ).

4. سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: 1998م).

الحاكم: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم النيسابوري (ت: 405هـ).

5. المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية (بيروت: 1990م).

ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (ت: 734هـ).

6. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط1، دار القلم، (بيروت: 1993م).

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت: 235هـ):

7. كتاب المغازي، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم العمري، ط2، دار اشبيليا للنشر والتوزيع، (الرياض: 2001م).

الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: 942هـ).

8. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1993م).

ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي (ت953هـ):

9. الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، تحقيق وتخريج: محمد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم (بيروت: 1995م).

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت463هـ).

10. الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، (بيروت: 1992م).

القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت: 544هـ):

11. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ط2 دار الفيحاء، (عمان: 1986م).

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ):

12. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: د.ت).

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت: 711هـ).

13. لسان العرب، ط3، دار صادر، (بيروت: 1993م).

الهروي: نور الدين أبي الحسن علي بن سلطان محمد (ت: 1014هـ).

14. شرح الشفا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2000م).

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت: 213هـ):

15. السيرة النبوية، ط2، طبعة جديدة منقحة ومرتبة، دار مكتبة المعارف، (بيروت: 2013م).

الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر سليمان الهيثمي المصري (ت : 807هـ).

16. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2001م).

الواقدي، محمد بن عمر (ت : 207هـ):

17. كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، (بيروت: 1964م).

ثانياً: المراجع الحديثة:

الالباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (ت : 1420هـ).

1. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط1، مكتبة المعارف، (الرياض:1995 م). أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم (ت: 1403هـ):

2. السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ط8، دار القلم، (دمشق: 2006م).

المبار كفوري، صفي الرحمن:

3. سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم – الرحيق– ط2، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق– بيروت 0012م).

الملاح ، هاشم يحيى:

4. الوسيط في السيرة النبوية، ط1، دار النفائس، (عمّان: 2003م).

ياقوت، محمد مسعد:

5. نبي الرحمة، تقديم، فريد عبد الخالق، ط1، الزهراء للإعلام العربي، (القاهرة: 2007م).